

(١)

الإسلام والعلم

سألني زميل لي لماذا أنت مسلم فقلت أنا مسلم لأنني إنسان أعترز بإنسانيتي، وأؤمن بالدين الذي يعترف بوجودي كإنسان، ويحترم الإنسان من حيث أنه إنسان مهما كانت دياناته وعقيدته، كما أنني أعلم علم اليقين أنني كائن حي كائن يعيش في هذا الوجود خلقه وأوجده من خلق وأنشأ ذلك الوجود.

وهذه قضية منطقية واضحة لا تحتاج إلى برهان ولا تحتاج إلى دليل أو دفاع لأنه لا يمكن أن يوجد في هذا الوجود موجود دون أن يكون له صانع أو خالق يعبئه من العدم ثم يقول له كن فيكون.

هكذا تعلمنا، وهكذا يحدثنا المنطق السليم أن فاقد الشيء لا يعطيه كما يحدثنا العلم المبني على الدراسة والتجربة أن الكائنات الحية لا تنشأ من العدم، بل تنشأ من كائنات حية أخرى وأن نظرية «التوالد الذاتي» التي كانت تسيطر على الأذهان حتى القرن السابع عشر الميلادي حيث استطاع (دوى) ذلك العالم الايطالي أن يثبت أن ذباب اللحم الذي يظهر عليه إذا ترك مدة من الزمن لا ينشأ من اللحم، كما كان يعتقد في ذلك الوقت، أو كما كانت تقول نظرية التوالد الذاتي.

ثم تمكن باستير (١٨٢٢ - ١٨٩٥) أن يثبت بالدليل القاطع أن الحياة لا تأتي من العدم بل تأتي من كائنات حية أخرى، وأنه من الممكن أن يحتفظ بالمواد العضوية

بعد تعقيمها إلى ما لا نهاية دون أن يتطرق إليها الفساد، ودون أن ينمو عليها أى فطر
بكتيريا أو أى نوع من أنواع الكائنات الحية الدقيقة.

وهنا يتجلى أمام العالم المتفهم لشئون الحياة، والذي هو على علم ببعض أسرارها أن
الحياة لا تنشأ إلا من كائنات حية أخرى وأنه لا بد وأن يكون هناك خالق لهذا الوجود
يحيى ويميت وهو الحى الذى لا يموت وسبحانه وتعالى القائل:

سُبْحٰنَ الَّذِى خَلَقَ الْاَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْاَرْضُ وَمِنْ اَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ

(يس - ٣٦)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

وَمِنْ اٰيٰتِهٖۤ اَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ اِذَا اَنْتُمْ بِشَرٍّ تَنْتَشِرُونَ

(الروم - ٢٠)

وَهُوَ الَّذِى يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيْدُهُ وَّهُوَ اَهْوَنُ عَلَيْهِ ۗ وَلَهُ الْمَثَلُ الْاَعْلٰى فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ

(الروم - ٢٧)

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

وخلق الإنسان معجزة من معجزات الله سبحانه وتعالى تدل على قدرته وعظمته
وهو سر لم يدرك بعضه إلا فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى عندما أعلن كل
من شيلدن وشوان عام ١٨٣٨ ميلادية ما يسمى «بالنظرية الخلوية» وهى تقول أن
كل كائن حى يتكون من خلايا، وأن الخلية هى الوحدة التى يتكون منها الكائن
الحى.

وخلق الإنسان من الموضوعات الأولى التى لا بد، وأن يفكر فيها أى إنسان منذ
طفولته ونشأته كيف وجد؟ وكيف يولد؟ ومن أين أتى؟ ويستوى فى هذا كل من
الطفل الصغير، والعالم الكبير، غير أن لكلى طريقته فى إدراك ما يريد، وما تؤهله له
قدرته العقلية ويهديه إليه مستوى علمه وتفكيره.

الطفل يسأل والكبير يقرأ ويدرس ويبحث مبتدأ بالبيضة والحيوان المنوى كيف يتكونان، وكيف يلتقيان ليكونا ما يسمى بالعلقة، وكيف تتكاثر الخلايا ثم كيف يتجمع بعضها مع البعض ليكون نسيجا ما ويتجمع البعض الآخر ليكون نسيجا آخر. ثم تتجمع الأنسجة مع بعضها لتكون الأعضاء. ثم تكون الأعضاء كلها لحنا جميلا متناسقا لا نشاز فيه يؤدي إلى ولادة كائن حي فضله الله على كثير ممن خلق تفضيلا. فسبحان الذى خلق الإنسان وكرمه ثم السبيل يسره وجعل له مالا ممدودا وبنين شهودا.

ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك من مئات السنين، ومن قبل أن يصل العلم ويدرك العلماء بعض أسرار ذلك التكوين. إذ أن علم التشريح لم يتقدم تقدما ملحوظا إلا فى القرن السادس عشر الميلادى، بينما استمر علم الأجنة ثابتا كما هو منذ عهد أرسطو أى قبل الميلاد، وذلك بأكثر من ثلاثمائة سنة تقريبا. وما ذلك إلا لأن المعتقدات الدينية فى القرن السادس عشر كانت تحول بين العلماء ورغبتهم فى فحص الأجنة التى كانوا يعتقدون أن الله قد أخفاها عن الأعين لحكمة خاصة. ولا يجوز للإنسان أن يبحث ويكشف النقاب عما أخفاه الله.

ولكن الإسلام لا يقر هذا فهو يدعونا إلى أن نبحث ونتعلم ونقف على أسرار خلقه وعظمته وقدرته، ولم تذهب بعيدا وأن أول ما نزل على سيد البشر بعد عبادة حقة وتفكير عميق استمر ليالى وأياما فى غار حراء عندما أتاه الروح الأمين طالبا منه أن يقرأ، وعندما يقول له النبى ما أنا بقارئ فيغظه جبريل عليه السلام حتى يبلغ من النبى الجهد ثم يرسله، ويكرر السؤال، ويتكرر رد الرسول صلوات الله عليه حتى إذا كانت المرة الثالثة يقول جبريل:

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَلَمْ يَكُنْ أَقْرَأَ ۝ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ

(العلق ١ - ٥)

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝

ها هو الروح الأمين يطلب من النبي أن يقرأ باسم الله الذى خلق الإنسان من علق وأن يقرأ باسم الله الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

وتلك هى الرسالة الأولى من السماء إلى الأرض من الله سبحانه وتعالى إلى خلقه وعبيده الذين أراد لهم العزة كل العزة بالقراءة وتنتهى بالعلم وتدعو الى التعلم بالقلم حتى يتعلم الإنسان ما لم يعلم.

وهنا تظهر الدعوة الإسلامية فى صورتها المنطقية الواضحة القوية فى أسلوبها السهلة فى فهمها. وإلا فما الحكمة فى أن يكون أول ما يوحى به إلى محمد عليه الصلاة والسلام :

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤

وهل هناك ما يشغل بال الإنسان مهما كان العصر الذى عاش أو يعيش فيه أكثر من خلقه وتكوينه. ثم ليزيده اطمئنانا ومعرفة بربه يدعوه إلى العلم والتعلم وأنه سبحانه وتعالى علم الإنسان ما لم يعلم، وأنه خلق الإنسان علمه البيان.

وعن معجزة خلق الإنسان يوضح القرآن كيف يسلك العبد طريق الإيمان استمعوا لقوله سبحانه وتعالى :

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ⑦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑧
إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ⑩ فَآلَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ⑪
(الطارق ٥ - ١٠)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ⑫ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ⑬ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ⑭ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ⑮ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ⑯
ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ⑰ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑱
(المؤمنون ١٢-١٤)

دين كهذا يكرم العلم ويحض على التعلم ويدعو إلى معرفة الخالق عن طريق معرفة مخلوقاته كيف وجدت؟ وكيف نشأت؟ لهو الصراط السوى حيث لا لبس ولا غموض بل دراسة وتعلم وبحث وتفكير. وقد كانت لى فرصة لم تتح لكثير ممن يشتغلون بالعلم. فأنا منذ بداية حياتى العلمية اشتغل بعلم الأجنة أدرس وأبحث وأقرأ محاولا أن ازداد فى كل يوم علما، فأعلم ما أتعلم وأحدث تلاميذى بما أرى، بل أريهم ما أرى من تكاثر للخلايا وتشكل لها ثم كيف تسير هذه الخلايا فى طريق مرسوم واضح لا تحيد عنه أبدا لتعطى ما خصصت له من كائنات حية.

فكنت أرى فى كل خلية آية، وفى كل علقه آية تحكى قصة كاملة متكاملة لتكوين كائن حى، يبدأ بالعلقة ثم بالمضغة المخلقة وغير المخلقة إلى تكوين العظام، ثم كسوتها باللحم.

وأنى لأدعو أى إنسان ليرى بنفسه نموذجا سهلا لهذا التكوين فى بيضة الضفدعة التى يوجد الكثير منها فى مجارى المياه فى ريفنا أثناء فصلى الصيف والربيع. فليراقب هذه البيضة وليسهر معها ما استطاع ليراها، وهى تنقسم، وهى تتشكل، وهى تنمو، وهى تتحرك فقد يتعب هو من المشاهدة، ولكنها لا تتعب هى من الإنقسام والنمو وقد تأخذه سنة من النوم فينام حتى إذا انتبه من نومه ونظر مرة أخرى ثانية لعرف أنها لم تنم، كما نام هو وهى لم تركزن الى الراحة كما أخلد هو إليها بل كانت مستمرة فى نموها وتخلقها فسبحان الذى أودعها تلك القوة وتلك القدرة. وأن من يعمل فى هذا المجال من العلوم لابد وأن يدرك أن هناك قوة عليا مفكرة مدبرة تدبر أمر كل تلك الكائنات ويعترف أرسطو (فى القرن الرابع قبل الميلاد) ذلك العالم الكبير بوجود تلك القوة العليا قائلا لابد وأن تكون موجودة تحرك المادة الحية التى لا شكل لها فتخلق منها كائنا حيا ينبض بالحياة. ولم يصل أرسطو إلى رأيه هذا إلا بعد أن درس جنين الدجاجة، وكيف يتكون داخل البيضة، وكيف ينمو داخلها، وكيف ينبض قلب الجنين فى اليوم الثانى من أيام الحضانة ولما تنمو الخلايا العصبية بعد عندئذ أدرك

أرسطو أن القلب ينبض بتأثير قوة خفية لا يفهمونها ولا سرها إلا الذي خلقها وخلق الإنسان من طين.

ولا زلنا نحن في عصرنا هذا بعد أربع وعشرين قرناً نؤمن بما آمن به أرسطو. إذا لم يصل العلم بعد إلى سر ذلك النبض الذي يبدأ ويبدأ ثم يستمر رتيباً، والجهاز العصبي لم يتكون بعد بل والكائن الحي نفسه لم يتخذ شكله السوي.

وإذا كانت الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان كثيرة وعظيمة فإن هناك آيات أخرى كثيرة وعظيمة تدعو إلى التفكير في الكون وجماله، وفي الدنيا وما فيها وفي الإنسان وأحواله، وفي الطبيعة أرضها وسماؤها، نجومها وأقمارها، وما يدب على الأرض من حيوان وما ينبت فيها من نبات، وفي تعاقب الليل والنهار لنرى آية الله في كل شيء وعظمته في كل ما خلق وقدرته سبحانه وتعالى في كل ما هو موجود في هذا الوجود. فنؤمن عن عقيدة بعد دراسة وبحث وتفكير لتكون عقيدتنا ثابتة راسخة ويكون إيماننا يقيناً متيناً وإسلامنا قوياً واضحاً. كيف لا وآيات الكتاب وما به من آيات العلم على وجه الخصوص كثيرة استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

(العنكبوت ٢٠)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ

قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ

(يونس ١٠١)

(البقرة ٢٥٩)

وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا

وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَنَهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾

(يس ٣٣)

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

(يس ٣٦)

سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ

(فصلت ٥٣)

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

(يوسف ١٠٥)

ولا يقف القرآن الكريم عند هذا الحد من الدعوة إلى العلم بل يحض عليه ويدعو إلى الاستزادة من العلم والتعلم، فيقول سبحانه وتعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه

(طه ١١٤)

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

ويقول جلت قدرته

(النساء ١١٣)

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

ويقول سبحانه وتعالى ليفتح باب العلم والبحث على مصراعيه أمام كل راغب في

العلم والبحث

(الإسراء ٨٥)

﴿ وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ويؤكد القرآن الكريم في أكثر من آية أن العلم وحده هو الشاهد على وجود الله ووحدانيته وأن العلماء هم أول من يعلمون عن يقين أن الله حق. وهم أول من يؤمنون بربوبيته وقدرته وهم الشاهدون على قدسيته وعظمته. أستمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

(النساء ١٦٢)

(الرعد ٤٣)

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

(المجادلة ١١)

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

وغير ذلك كثير وكثير عن فضل العلم والعلماء إلا فليقرأ القرآن من يريد المزيد.

ويقول النبي صلوات الله عليه (العلماء ورثة الأنبياء) ويقول في حديث آخر (إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله عز وجل فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم)، ويقول على بن أبي طالب رضى الله عنه (العلم خير من المال،

العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم حاكم والمال محكوم عليه، المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق).

هذا قليل من كثير عن فضل العلم والعلماء وعما قاله القرآن الكريم، ومنه يتضح أن الدين الإسلامي والعلم توأمان وأن الدين لا يقف عقبة في سبيل العلم بل يدعو إليه ويعتمد عليه ويشجع على البحث ويرغب في التعلم بل، ويجعل العلم هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله سبحانه وتعالى والوقوف على عظمته وقدرته ومن عنده أدنى شك في هذا فليقرأ القرآن الكريم ليرى أن لفظ العلم قد ذكر أكثر من مائة مرة وأن بالقرآن الكريم ما يقرب من سبعمائة وخمسين آية كونية وعلمية.

دين يعتمد على العلم والمنطق ويستند على البحث والدرس لهو دين حق لأن العلم هو البحث عن الحقيقة وحدها والحقيقة لا تحتل النقاش أو الجدل.

هكذا كان المسلمون الأوائل ينظرون إلى الكون فيتعلمون منه ويقتنعون بصحة ما يعتقدون فيجدون في العلم المعجزة، تلو المعجزة والدليل يشد أزر الدليل على قدرة الله ووحدانيته.

استمعوا إلى الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه وقد أتاه أناس يسألونه عن الله سبحانه وتعالى فيقول: ما تقولون في خشب قطع من الأشجار بلا تجار وأجتمع ثم كون سفينة تجرى في البحر، وهي مشحونة بالأحمال مملوءة بالأنقال وقد أحتوتها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة وهي من بينها تجرى مستوية ليس بها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها.

هل يجوز ذلك في العقل؟

قالوا لا. قال أبو حنيفة يا سبحان الله إذا لم يجوز في العقل سفينة تجرى في البحر مستوية من غير متعهد، ومجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها من غير صانع وحافظ؟ فقالوا صدقت وآمنوا بالله واعترفوا بوجوده وقدرته سبحانه وتعالى.

بل نقرأ قول الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو يسبح الله معترفا

بقدرته وعظمته فيقول: «انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطاقة هيئتها. لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على أرضها ووصبت على رزقها تنقل الحبة إلى جحرها وتعدّها في مستقرها تجمع من حرها لبردها. وفي ورودها لصدورها. مكفولة برزقها، مرزوقة بوقفها. لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان ولا في الصفا اليابس والحجر الجامس، ولو فكرت في مجارى أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجا ولقيت من وصفها تعبا. فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها وبنّاها على دعائمها. لم يشركه في فطرته فاطر، ولم يعنه في خلقها قادر.

ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غايته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شئ وغامض اختلاف كل حى. وما الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقوى والضعيف في خلقه إلا سواء.

وإذا كان الإسلام يدعو إلى العلم ويحض عليه فإنه أيضا يكرم الإنسان في محكم آياته ويضعه في المرتبة الأولى بين سائر المخلوقات استمعوا لقوله تعالى:

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾
ويقول سبحانه وتعالى:

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾
ويقول جلت قدرته:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

(البقرة ٣٠)

ويقول سبحانه وتعالى مخاطبا ملائكته:

فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾

(الحجر ٢٩)

وعندما يريد الله أن يكرم آدم كرمه بالعلم، وفي تكريم آدم بالعلم تكريم للعلم ودعوة للعلم والتعلم، وهكذا يعلم سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها، ويسأل ملائكته أن

أُنِيعُوا بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾

(البقرة ٣١)

بل استمعوا الى القصة كلها كما يحكيها القرآن الكريم:

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ

يَعَادِمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

(البقرة ٣٠ - ٣٢)

وهل هناك تكريم أكثر من هذا التكريم. يتحدث سبحانه وتعالى عن آدم بأنه خليفة في أرضه خلقه وعلمه الأسماء كلها ثم يدعو ملائكته لیسجدوا له فتقول الملائكة:

أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

فيقول سبحانه وتعالى

إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

(البقرة ٣٠)

وبالرغم من هذا التكريم والتعظيم لآدم عليه السلام يعصى ربه ويغوى، ولكن الله

الرحيم بعباده يعفو ويغفر أليس هو الغفور الرحيم. ويتوب الله على آدم كما يحدثنا القرآن الكريم:

وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٣٢﴾

(طه ١٢١-١٢٢)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا

فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

(البقرة ٣٧)

وهنا يقف الإنسان قليلا ويفكر: أخطأ آدم... هكذا يحدثنا القرآن الكريم فما ذنب أبناء آدم كلهم في تحمل وزر خطيئة ارتكبها أبوهم، ولماذا يعاقبون كلهم على هذه الخطيئة، وكما يقال لولا النجاة على يد السيد المسيح الذي فدى البشرية جميعا بدمه الطاهر لكان مصير البشرية كلها إلى هلاك، وما ذنب من مات قبل المسيح... أيعذبون في نار جهنم بذنب لم يقترفونه وجريمة لم يشهدوها، ولم يرتكبوها العقل يقول لا.. والمنطق يقول لا.. والعدل يقول لا.. وأرجع إلى الإسلام والقرآن الكريم فأقرأ فيه ما يعيد إلى نفسى اطمئنانها وما يضع الأمور في نصابها. وهنا تظهر عظمة الإسلام وقوة دعوته. بل استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَنَافُهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣٦﴾

(الإسراء ١٣-١٤)

أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤١﴾

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

(البقرة ١٣٤)

(فاطر ١٨)

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَأُ الْجَزَاءَ الْآوْفَى ﴿٤١﴾
(النجم ٣٩ - ٤٠)

وغير ذلك كثير وكثير مما لا يدع مجالاً للشك في أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم
الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون. وسبحانه وتعالى القائل:

وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
(الأنفال ٥١)

هذا هو المنطق المعقول، وهذا هو العدل الذي لا بد وأن يكون. وعندما أراد الله
سبحانه وتعالى أن يفضل داود وسليمان على كثير من عباده الصالحين فضلهاما بالعلم
أيضاً استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمًا ﴿١٥﴾ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِّنْ كُلِّ
شَيْءٍ إِن هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْأَمِينُ ﴿١٧﴾
(النمل ١٥ - ١٦)

ولسليمان عليه السلام قصة طريفة مع بلقيس ملكة سبأ. وهي قصة يعرفها كل
من قرأ القرآن أو استمع إليه. ولكن ما يعنينا هنا ونحن نتكلم عن العلم وسطوته
وقدرته.

فعندما يقول عليه السلام كما يحدثنا القرآن الكريم:

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٨﴾
فيقول عفريت من الجن:

أَنَا أَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٢٩﴾

(النمل ٢٨-٢٩)

ولكن الذي عنده علم من الكتاب يقول:

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ؕ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ؕ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
وهكذا استطاع الذي عنده علم من الكتاب أن يعمل ما لم يستطع عليه عفريت من الجن.

وإذا كانت هذه القصة استعراض لقدرة العلم فإن ما حدث بين موسى عليه السلام والخضر درس ليعلم من عنده علم أن هناك من هو أعلم منه وهكذا لا يقف. ولا يغتر بما وصل إليه من علم بل لا بد وأن يستمر في طلبه العلم ويقال في تفسير البيضاوي أن موسى عليه السلام قال يارب إن كان في عبادك من هو أعلم من دللني عليه: قال سبحانه وتعالى: الخضر أعلم منك. قال موسى: أين أطلبه. قال سبحانه وتعالى: على الساحل عند الصخرة. قال موسى كيف لي به. قال سبحانه وتعالى: تأخذ حوتا في مکتل فحيث فقدته فهو هناك. وهكذا تستمر القصة كما يحكيها القرآن الكريم في سورة الكهف:

قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ؕ اتَّبَعَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَينَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ؕ خُبْرًا ﴿٦٨﴾
(الكهف ٦٣ - ٦٨)

ويعده موسى بالصبر وعدم عصيان الأمر، وتسير الأمور، ويسيران وتستمر القصة من خرق لسفينة ركباها إلى قتل غلام لقياه ثم يهبطان قرية يأبى أهلها أن يضيفوهما

ولكنهما يجدا جدارا يريد أن ينقض فيقيمه الخضر، وفي كل مرة ينفذ صبر موسى عليه السلام، ويسأل حتى كانت المرة الثالثة والأخيرة فيحدثه الخضر بما غاب عنه وينبئه بما لم يستطع عليه صبيرا وأنه ما فعل هذا إلا بناء على أمر من الله عز وجل. وهكذا تتم الحكمة من هذا اللقاء وهذه المصاحبة، وأنه يجب على الإنسان أن لا يغتر بعلمه وأن لا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه من الأمور فلعل فيه سر لا يعرفه أو حكمة لا يدركها، وأنه لا بد وأن يسأل ليعلم ويصبر على ما لم يعلم ليزداد معرفة ويتعلم.

والإسلام في دعوته يخاطب الفكر والعقل ويدعو الناس عن طريق التفكير والنظر والتدبر إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ثم هو في نفس الوقت يندد بالذين ضلوا عن ذلك الطريق، ولم يستعملوا عقولهم في الوصول إلى معرفة الحق سبحانه وتعالى والإيمان بوجوده، ويحدثنا القرآن الكريم عنهم وقد عرفوا الحق:

لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ (الملك ١٠)

ويسأل سبحانه وتعالى من يتبعون الظن ويتعدون عن اليقين فيقول:

قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

(الأنعام ١٤٨)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾

(النجم ٢٨)

وينظر الإنسان نظرة أخرى إلى من جمده تفكيرهم وتحجرت عقولهم فلا يتعلمون ولا يبحثون مقلدين آبائهم وأجدادهم دون تمييز أو تفكير، ودون الإلتزام بشريعة الله التي شرعها لعباده، وهي أن ينظروا ويتفكروا ويتعلموا ويبحثوا. ويقول القرآن الكريم

عنهم:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءِآبَاؤُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

(البقرة ١٧٠)

ويقول سبحانه وتعالى عنهم في آية أخرى:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءِآبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءِآبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧١﴾

(المائدة ١٠٤)

ولا يرضى الإسلام عن هذا الجمود في التفكير ولا تقره الشريعة الإسلامية لأنها ترى في هذا الجمود سلب لإنسانية الإنسان التي كرمه الله بها، ومنعه من استعمال حقه المشروع في الحياة من أن يعلم ويتعلم، وينظر في ملكوت السموات والأرض ويتفكر في كل ما خلق الله ليميز بين الظلمات والنور، وحتى لا يضل عن سبيل الحق ويصدق فيه قوله سبحانه وتعالى:

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءِآبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ
أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

(الأعراف ٢٨)

ويعلن الإسلام منذ نشأته الحرب على الجهل فهو يحث على تعلم القراءة والكتابة وهما دعامتان أساسيتان لكل من يطلب العلم. حتى أن المسلمون كانوا يطلقون سراح الأسير إذا علم عددا من المسلمين القراءة والكتابة. بل قد كانوا يجعلون تعليم القرآن مهرا للزواج.

وهكذا انتشر الإسلام ووصل المسلمون إلى مرتبة من الرقي لم تصل إليها أمة من الأمم وما ذلك إلا لأنهم تسلحوا بالدين والعلم فعرفوا الله المعرفة الحقة وتعلموا وعلموا

وكتبوا وألقوا في شتى العلوم والفنون وحسبهم من الحوافر ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم:

أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأَ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق ١ - ٥)

وفي هذه الآيات الكريمة يسوى سبحانه وتعالى بين أمرين عظيمين وهما خلقه لعباده ونعمة العلم والتعلم مشيراً بذلك إلى أن المخلوق الذي خلقه الله وكرمه إن لم يتخذ من العلم سبيلاً فلا وجود له، ولا قيمة له ولا عزة في هذه الحياة.

ويكرم الله العلم في آية أخرى، وفي سورة أخرى فيقسم سبحانه وتعالى بالقلم فيقول:

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ (القلم ١ - ٢)

ولا يذهبن بنا الظن أن العلم في نظر القرآن هو العلم بالشرائع فقط والعلم بالأحكام من حلال أو حرام وإنما العلم في نظر القرآن والدين هو العلم بكل ما يفيد الإنسان في حياته ولم لا؟ وقد جعله الله خليفته في أرضه يعمرها ويستخرج كنوزها وينزع أرضها ويحصد ثمارها، ولا يتم كل ذلك إذا أردنا أن نقول إلا بالعلم، فبالعلم الذي أساسه المعرفة والتجربة والبحث يصلح الزرع فينمو بل ويزداد في نموه ويكثر ويزداد محصوله، وكذلك بالعلم الذي أساسه المعرفة والدراسة والبحث يصلح حال الحيوان فيقوى ويكبر ويزداد خيره ونسله، وبالعلم وحده بما فيه من خبرة وتعلم وبحث تزداد معاملتنا المالية وتزداد بذلك موارد الدولة وازدياد الموارد دعامة كبرى من دعامات قوى الشعوب.

وهكذا يقال عن الطب والهندسة والصناعة، وغير ذلك من العلوم الأخرى والتخصصات الحديثة المختلفة التي يحسن بها حال المسلمون فلا جمود ولا ركود في الإسلام ولا حدود تحول بين العقل والفكر البشري، وما يصلح وما يفيد حتى الحرب

وتدريب الجيوش وعمل التحصينات للدفاع عن النفس والوطن علم يحث عليه الدين ويدعوه له استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ أَرْحَابِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾
(الأنفال ٦٠)

ويقول سبحانه وتعالى:

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
(التوبة ٤١)

ويقول الرسول صلوات الله عليه: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد).

ونحن المسلمين اليوم ما أحوجنا إلى أن نتعلم ونبحث في المجهول لنستزيد علما وقوة ويكون لنا شأن بين أم الأرض ونكون قد أطعنا قوله سبحانه وتعالى:

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ أَرْحَابِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾
(الأنفال ٦٠)

obbeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَمُحْفِظُونَ ﴿١﴾

(سورة الحجر)